Doi: 10.34120/0080-051-002-005

Psychological Approaches to the Study of Cultural Foundations of Behavior and Cognition: An Introduction to Study these Foundations in the Arab Context

Yasmin Haddad

Abstract:

Objectives: As an initial step in the efforts to strengthen the relation between psychology and culture in the Arab World, the present paper sought the following **objectives:** (a) to shed light on the cultural foundations of human behavior and cognition in view of recent research in the field of psychology and culture; (b) to provide a comparative review of the three main approaches that emerged in the field, namely: cross-cultural psychology, cultural psychology and indigenous psychology; (c) to explore the current status of psychological research in the Arab World in relation to Arab culture; (d) to review examples of cross-cultural and cultural studies, including Arab samples, in central areas in the domain of culture and psychology. **Methodology:** The present paper is based on a literature review of research in the field of psychology and culture related to the study objectives. **Results:** There is compelling evidence that cultural factors profoundly affect human behavior and cognition; the three main approaches to the study of psychology and culture represent a paradigm shift by introducing culture as an essential element in psychological research. With respect to psychological research in the Arab World, there seems to be a kind of consensus among experienced academicians that this research lacks the aspired connection to Arab culture and to pressing social issues in Arab societies. The cross-cultural and cultural studies reviewed, reveal some common elements between Arab culture and East Asian culture, on the one hand, and Western culture on the other. **Conclusion:** The recent focus on culture in psychological research has led to a shift in theorizing about the forces that shape humans psychologically. In view of this expanding knowledge, perhaps gaining awareness of the constructive, as well as the destructive elements in Arab culture might lead to achievements comparable to those of highly achieving cultures of the East and West.

Keywords: Culture and psychology, Cross-cultural psychology, Cultural psychology, Indigenous psychologyp psychological perspective to Arab culture.

توجهات في علم النفس لدراسة الأسس الثقافية للمعرفة والسلوك: مدخل لدراسة هذه الأسس في السياق العربي

ياسمين حداد*

ملخَّص

تهدف ورقة البحث هذه إلى ما يأتي: (أ) تسليط الضوء على الأسس الثقافية للسلوك والتفكير التي بيّنتها البحوث الحديثة في مجال علم النفس والثقافة، (ب) مقارنة تقييمية للتوجهات الرئيسة الثلاثة التي أفرزها البحث والتنظير في هذا المجال والمتمثّلة بعلم النفس عبر الثقافي، وعلم النفس الثقافي، وعلم النفس المحلي (المؤصّل ثقافيًّا) (indigenous psychology)؛ (ج) استطلاع واقع البحث النفسي العربي في علاقته بالثقافة العربية؛ و(د) مراجعة نماذج من البحوث النفسية الثقافية التي تضمنت عينات عربية في مجالات محورية من ميدان الثقافة وعلم النفس. **المنهجية:** تم الاعتماد على مراجعة للبحوث النظرية والإمبريقية التي جرت في مجال علم نفس الثقافة، والمتصلة بالأهداف السابقة. **النتائج:** تقدّم التوجهات الثلاثة إسهاماتها الخاصة، كما تقدم إسهامات مشتركة في الدراسة النفسية للثقافة، وتقدم البحوث فيها أدلة متينة على أن المعرفة والسلوك يتأثران تأثرًا بالغًا بالثقافة؛ ويظهر إجماع بين فئة من ذوي الخبرة الأكاديمية، إضافة إلى بعض الأدلة الإمبريقية، على افتقار البحث العربي في علم النفس إلى الصلة المنشودة بالثقافة العربية؛ وتدل الدراسات الثقافية التي تمت مراجعتها على وجود عناصر سيكولوجية تجمع الثقافة العربية بكل من الثقافتين الشرق آسيوية والغربية، في آن. **الخلاصة:** أدّى التركيز على دور الثقافة في تشكّل الإنسان سيكولوجيًّا إلى انعطافة في البحث والتنظير النفسيين على صعيد عالمي؛ مما يستدعي تركيزًا مماثلًا في البحث النفسي في العالم العربي.

المصطلحات الرئيسة: الثقافة وعلم النفس، علم النفس عبر الثقافي، علم النفس الثقافي، علم النفس المحلي/المؤصل ثقافيًّا، منظور نفسي للثقافة العربية.

(*) الجامعة الأردُنّيّة وجامعة الإمارات العربيّة المتّحدة، سابقًا yasminhaddad@yahoo.com

مقدّمة:

لم يدخل مفهوم الثقافة إلى التنظير النفسي إلا في العقود الأخيرة على وجه التقريب، وتعتبر النظريات النفسية، من وجهة نظر واضعيها ودعاتها، نظريات عامة، تفسّر السلوك الإنساني، وتنطبق على الجماعات البشرية المختلفة؛ لأن مقدار التشابه القائم بين البشر يفوق مقدار الاختلاف. ومع أن هذه النظريات جميعها تؤكد أهمية الأثر الذي تتركه البيئة أو المحيط الاجتماعي على السلوك والعمليات العقلية، فإن تلك البيئة كانت، في الغالب الأعم، تحمل سمات الثقافة الغربية في حقبة المئة سنة ونيّف الأخيرة بخلفيتها الفلسفية، والعلمية، والثقافية الخاصة. واعتقد الباحثون الذين عملوا في إطار هذه النظريات أن ما يدرسونه من عمليات إنما هي عمليات فطرية تعكس الطبيعة البشرية وليس للثقافة أثر ذو بال عليها. ولكن البحوث الحديثة تشير إلى أن هذه العمليات الأساسية ذاتها ليست محصّنة من تأثير الثقافة، حتى ما يتعلق منها بالإدراك البصري والوظائف العصبية، والتي يُعتقد أنها محكومة بالطبيعة البشرية وليس للمحيط تأثير فيها (Kim & Sasaki, 2014).

وقد شهدت العقود الأخيرة اهتمامًا واضحًا لدى علماء النفس بمفهوم الثقافة، كما أشرنا، رغم أن المنظور النفسي إلى الثقافة – وهو المنظور الذي تأخذه ورقة البحث الحالية – أخذ يتشكل منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في نقطة التقت فيها الأنثروبولوجيا الثقافية بعلم النفس في العقود الأولى من القرن العشرين، وتعمّق بالتقائه بالاتجاه المعرفي في علم النفس الذي تقوّى بدوره منذ بداية الخمسينيات؛ مما يؤكد ضرورة دراسة العلاقة بين علم النفس والثقافة. وقد أخذت البحوث في الآثار الثقافية في علم النفس توجهات أو مقاربات متباينة بفعل اختلاف نقاط التركيز التي انطلق منها الباحثون والباحثات في دراساتهم لهذه الآثار، واختلاف منطلقاتهم النظرية ووسائلهم المنهجية. وأدى تراكم البحوث التي أُجريت، ولا تزال، ضمن هذه المقاربات، إلى إصدار العديد من المجلات العلمية، وإلى إنشاء الروابط المهنية الخاصة بكل منها. وتتمثل هذه التوجهات أو المقاربات في: (أ) علم النفس عبر الثقافي (cross - cultural psychology)؛ (ب) علم النفس الثقافي (cultural psychology)؛ و(ج) علم النفس المحلي (المؤصّل أو المؤسّس على الثقافة المحلية) (indigenous psychology).

وبطبيعة الحال، فإن هذه التوجهات، وقد أضحت فروعًا في علم النفس، تخضع

للتقييم والمقارنة فيما بينها، وتثير الكثير من الجدل العلمي الذي يدفع إلى المراجعة المستمرة لمنطلقاتها النظرية، وإلى تقييم إنجازاتها في كشف العلاقات الشائكة بين الثقافة وعلم النفس (Allwood,2019; Ratner,2008, pp.30-34, 58-66).

وسننظر فيما يأتي إلى المضامين النظرية، وإلى نماذج ممثلة للبحوث الإمبريقية الخاصة بهذه الفروع، ونعرض لمحة سريعة لتطورها تاريخيًّا؛ فهي وإن كانت جميعها تُعنى ببحث العلاقة بين علم النفس والثقافة، فإن كلًّا منها تطور في سياق تاريخي خاص يعكس تأثير عوامل اجتماعية وسياسية، إلى جانب يتعلق بتطور التنظير في علم النفس. ويحمل كل منها ذخيرة من الأفكار النظرية والمنهجية التي يمكن أن تفيدنا في توثيق العلاقة بين البحث النفسي في العالم العربي والثقافة العربية. ولكننا قبل ذلك سنتناول العلاقة بين علم النفس والثقافة كإطار عام لهذه الفروع تناولًا موجزًا.

الثقافة وعلم النفس: أخذ مفهوم الثقافة موقعًا متميزًا في العلوم الاجتماعية المختلفة في الثلاثين سنة الماضية بوجه خاص، بعد أن ارتبط نشوْءُه المبكر بالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وقد انصب الاهتمام فيه على وصف الظواهر الثقافية وتحليلها، وأخذ بالنسبية الثقافية كمبدأ أولي. واستعانت ميادين العلوم الاجتماعية المختلفة بهذا المفهوم، واستخدمته في تفسير الظواهر التي تدرسها، ويقف علم النفس وعلم النفس الاجتماعي على رأس هذه القائمة من الميادين.

تعريف الثقافة وتطور التنظير فيها: لمحة موجزة:

ظهر مصطلح ثقافة لأول مرة في قاموس باللغة الإنجليزية عام 1920 (Kroeber, 1949 موثق في Berry. et al., 2002). وقدّم (تيلر) أول تعريف موثّق لمفهوم الثقافة بقوله: إن الثقافة «... هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع» (Tylor, 1871 موثق في «كوش»، 2004، 31). وتمتاز كلمة ثقافة بالنسبة إلى «تيلر» بأنها كلمة محايدة تشمل المجتمعات الإنسانية كافة، بغض النظر عن مستوى تحضّرها. وتعددت تعريفات الثقافة لاحقًا حتى إن كرويبر وكلاكهون (Kroeber & Kluckhohn, 1952) حصرا (146) تعريفًا، ومن ثم قدما تعريفًا شاملًا (مطولًا) يتضمن العناصر الظاهرة أو الخاضعة للملاحظة والعناصر الضمنية للثقافة، يقولان فيه:

«تتضمن الثقافة أنماطًا من السلوك، المعلنة، الظاهرة، والمضمرة/الضمنية، تم اكتسابها وتناقلها من خلال رموز تمثل الإنجازات المميزة للجماعات البشرية، بما فيها الآثار المادية؛ وتُشكّل الأفكار التقليدية (المتوارثة) جوهر الثقافة، وبخاصة ما يتصل بها من قيم. ويمكن اعتبار الأنظمة الثقافية نتاجًا للفعل (الإنساني) من جهة، وشروطًا تحدد الفعل من جهة أخرى».

أما التعريفات السيكولوجية وتعريفات الثقافة التي قدّمت بعد السبعينيات من القرن الماضي، فإنها تركّز على العناصر الضمنية أو الرمزية من الثقافة، وتفترض أن الثقافة شيء يقع داخل الأفراد، وفيما بينهم، ويتمحور حول معانٍ وممارسات مشتركة. ولكن العديد من تعريفات الثقافة يؤكد في الوقت نفسه خاصيةَ التغير في الثقافة من حيث إنها قد تحمل معانيَ جديدةً، وتخضع لتفسيرات جديدة، وتغييرات تقوم بها أجيال جديدة (Berry et al., 2002).

وتتعدد نظريات الثقافة إلى حد يجعل ربما من الصعب حصرها (Groh, 2020). وتتباين هذه النظريات من حيث شموليتها واتساع نطاق تفسيرها للظاهرة الثقافية. وكانت التنظيرات الأولى في الثقافة تقوم على قاعدة أنثروبولوجية بعد أن وضع «تيلر» لبناتها الأولى واعتبر الإنسان «كائنًا ثقافيًّا»، سواء كان يعيش في مجتمع بدائي أم في مجتمع متحضر. وعندما تابع «بوا» (Boas, 1928) ، اتجاه «تيلر» عارض الاتجاه الداروني الداعم للعرقية، وجاء بمفهوم النسبية الثقافية (cultural relativism)، أو الخصوصية الثقافية. وكان «بوا» أول من وضع التصور الأنثروبولوجي لهذا المفهوم، وإن لم يكن هو من وضع المصطلح الخاص به، إلى جانب وضْعه منهجًا خاصًّا للدراسة الأنثروبولوجية، هو منهج الإثنوغرافيا الذي يقضي بدراسة الثقافة من الداخل وبأدوات مناسبة؛ فقامت النسبية الثقافية بذلك على مبدأ ذي شقين: شق إبستيمولوجي وشق منهجي. واتجه البحث في الأنثروبولوجيا الثقافية إلى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية الفردية بتأثير أفكار «بوا». ويقع تحليل مالينوفسكي (موثق في Malinowki, 1944; Berry et al., 2002)، الوظيفي للثقافة ضمن هذه الفئة من الأفكار، والذي رأى فيه أن وظيفة الثقافة تتمثل في تلبية الحاجات الأساسية للإنسان، وأن الجماعة الثقافية تستجيب لهذه الحاجات بخلق المؤسسات التي تلبيها. وتُشكّل هذه الأفكار، إلى جانب البحوث الإمبريقية التي استندت إلى الأنثروبولوجيا، الروابط الأولى بين الثقافة وعلم النفس.

وطوّر ليفي ستراوس (موثق في Levi Straus,1958; Groh,2020) نظريته البنائية في الثقافة (structural theory of culture) متأثرًا بالأنثروبولوجيا الأمريكية، إلا أنه رأى أن هناك مبادئ أو بُنى أساسية تجعل الثقافة ممكنة وتتيح تنوع أشكالها في الوقت ذاته؛ فلم يأخذ بذلك بالنسبية الثقافية إلى حدها الأقصى. وأوضح الصلات المتداخلة بين بُنى الطبيعة وبين المواد الثقافية، وسلوك أفراد الجماعة، ولغتهم. ويُعنى الاتجاه البنائي والسيميائي (semiotic) الذي أسهم ليفي ستراوس في إنشائه بتحليل الرموز والإشارات للكشف عن المنطق البنائي العميق الكامن وراءها، والذي يقوم على التفكيك وإعادة البناء. ويبرز تصنيف ليفي ستراوس للثقافات من حيث قدرتها على التغير كإسهام مهم آخر في تطور نظرية الثقافة؛ إذ افترض أن هناك «ثقافات باردة» (Cold cultures)، وهي ثقافات تقليدية، جامدة، لا تتغير كثيرًا؛ و«ثقافات ساخنة» (hot cultures) دائمة التغير، كما هو حال ثقافات العولمة الحديثة في الغرب.

وعلى أساس من النظرية البنوية هذه قدم بارسونز مفهوم النظام الاجتماعي (social system) (Parson,1951)، مفترضًا أنه نظام ينتج عن التفاعلات الاجتماعية لأفراد الجماعة، وأنه يقود إلى تشكل وحدات اجتماعية تمثل الأمة أكبرها حجمًا. وافترض أن سلسلة من الأنظمة الفرعية تنبثق من النظام الأوسع، يتم التواصل وتبادل الإشارات والرموز فيما بينها في الوقت الذي تكون فيه هذه الإشارات والرموز قد أخذت معانيها على أساس ثقافي.

وإلى جانب التقدم في فهم الثقافة كظاهرة شمولية، هناك مقاربات تتمحور حول جوانب محددة من العمليات الثقافية – الاجتماعية كنظريات الهوية الاجتماعية (-so cial identity theories , e.g, Tajfel, 1981) التي ترى أن الهوية لا تتشكل إلا في نطاق نظام اجتماعي، وتتضمن الانتماء إلى جماعة مقابل جماعة/ ثقافة أخرى، ويفترض أن تأثيرها يطول نطاقًا واسعًا من الظواهر الشخصية والاجتماعية. وهناك نظريات ذات قيمة تفسيرية كبيرة تتعلق بانتقال العناصر الثقافية من خلال التماس أو التواصل بين الثقافات تساعد على فهم التغير الثقافي، والديناميات التي تقف وراءه. ويعود الفضل لهيرتزوغ (موثق في Hertzog, 1988; Groh, 2020) في تحليل العمليات الثقافية التي تأخذ مجراها عند تقارب الثقافات وتمازجها والاستنتاج – بناء على أدلة أثرية، ولغوية، وتاريخية – أن التقدم ينبثق من اندماج الثقافات وتوليفها (senthesis)؛ وأن ما ينتج

عن ذلك من تغير ثقافي يخضع لمعايير الفائدة والفعالية – وهو ما حدث عبر التاريخ. فالثقافات تتمازج وتندمج وتأخذ العناصر المفيدة طريقها إلى البقاء. ولا بد من التمييز هنا أيضًا بين الثقافات المهيمنة والثقافات المهيمن عليها؛ لأن القوة النسبية للثقافات تحدد اتجاه التأثير، والذي يكون في الغالب لصالح الجانب المهيمن – وإن كان لا يقتصر عليه.

ويظهر التطور في نظريات الثقافة أيضًا في الاهتمام بملامح خاصة من الثقافة المعاصرة؛ مما يعكس التحولات التي أخذت مجراها في النصف الثاني من القرن العشرين، وما اكتنفه من تطورات اقتصادية أدت إلى ظهور العولمة، وتفاعل ثقافي، وتغيرات ديمغرافية، وتطور هائل في التكنولوجيا ووسائل الاتصال. وعكست هذه التنظيرات المناخات العلمية والفلسفية للعقود المتتالية لذلك القرن، وزوّدت البحث النفسي الثقافي بذخيرة من المفاهيم.

وأما المنظور النفسي للثقافة، فإن منظريه (e.g., Greenfield, 2000; Heine, 2012, 29) يعتبرون برونر (Jerome Bruner) مؤسس هذا المنظور؛ إذ أسهمت بحوثه في النمو المعرفي في توجيه الانتباه إلى دور الثقافة في اكتساب المعرفة، ونمو العقل عبر الزمن، وقادته إلى استنتاج أن الثقافة هي التي تحدد المعاني التي نشتقها من تفاعلاتنا وما يقع فيها من أحداث (Bruner,1990). ولكن العديد من علماء النفس المختصين بالمعرفة وعلم النفس الثقافي يتفقون على أن العلاقة بين الفرد والثقافة علاقة ديناميكية، فنحن لا نتشكّل من خلال الثقافة فحسب، ولكننا نُسهم أيضًا في تشكيلها (Shweder, 1990).

وضمن هذه الأطر التعريفية والنظرية للثقافة، تُقدّم المنظورات النفسية إجابات للأسئلة الرئيسة المتعلقة بنشوء الثقافة واستمرارها، والتغير الثقافي المتواصل عبر الزمن، ويقدم البحث الإمبريقي في الميدان دراسات معمّقة للعمليات الثقافية التي تأخذ مجراها على الصعيد المعرفي، وعلى الصعيد البين شخصي (interpersonal)، توضّح كيف تصبح الاعتقادات والممارسات مشتركة على نطاق واسع بين أعضاء الجماعة الثقافية (Heine,2012, pp.78-83)، وكيف يتم تذويتها (become internalized)؛ فتنتقل من كونها كيانًا خارجيًّا إلى كونها عناصر متمثّلة في الذات(Markus & Kitayama,1991) .

آثار موثّقة للثقافة في المعرفة والسلوك: كشفت البحوث الغزيرة التي أُجريت في ميدان علم النفس والثقافة آثارًا واسعة وبعيدة الغور للثقافة في الجوانب النفسية المختلفة. وتظهر هذه الآثار أكثر ما تظهر عند المقارنة بين الثقافات في

توجهات عامة أو برادايمات (paradigms) تتباين عليها الثقافات تباينًا جذريًّا. ولعل أبرز هذه البرادايمات/ أو الأبعاد الثقافية المفترضة هو بُعد الفردية – الجماعية (individualism versus collectivisim; Hofstede, 2013; Triandis, 1989)، والذي يمكن اعتباره بوجه عام البُعد الذي يميز الثقافات الغربية عن الثقافات الشرقية؛ إذ تتميز الثقافات الفردية بتركيزها على الفرد وأهدافه، وتضمن له الحرية والاستقلالية لمتابعتها، في حين أن الثقافات الجماعية يكون محورها الجماعة، وتُعطى الأولوية فيها لأهداف الجماعة ومتطلباتها. ويتجلى أثر برادايم الثقافة الفردية مقابل الثقافة الجماعية في النظرة إلى الذات ككينونة اجتماعية؛ هل هي ذات «مستقلة» (عن الآخرين) (an independent self) كما هو الحال في الثقافات الفردية، أم أنها ذات «مترابطة» مع الآخرين (an interdependent self) كما هو الحال في الثقافات الجماعية. هذا، ويُفترض أن البرادايمات الثقافية تتضمن الموجهات الأولية للسلوك والتفكير.

وقد شهدت العقود الأخيرة موجة من البحوث المقارنة بين الشرق آسيويين، كنموذج للتوجه الثقافي الجماعي، والذات الترابطية؛ وبين الأمريكيين من أصول أوروبية، كنموذج للتوجه الثقافي الفردي، والذات الاستقلالية؛ إذ تجمّع قدر وافر من البحوث يوثّق التأثيرات اللافتة والبعيدة الغور للثقافة في الجوانب الذهنية، والشخصية، والدافعية للإنسان، ويتم التعامل مع هذه التوجهات في أدب الموضوع على أنها منتجات ثقافية بالدرجة الأولى. وتعمل ممارسات التنشئة الاجتماعية، بطبيعة الحال، على برمجة الأطفال ليتمكنوا من الاندماج في العالم الثقافي المحيط بهم، وبالمواصفات الشخصية، والمعايير الإنجازية المتطلبة فيه.

وكما سبق أن أشرنا؛ فإن علم النفس في تصديه للبحث في العلاقة بينه وبين الثقافة يتخذ مقاربات ثلاثًا تتباين من حيث أسسها النظرية والمنهجية، وربما تتكامل في الوقت نفسه في محاولتها فهم الآثار النفسية للثقافة. وقد تطوّرت في سياقات خاصة، وأنجزت – ولا تزال تُنجز – مهمات في الفروع المختلفة لعلم النفس، وتهدف في نهاية المطاف إلى تطوير علم نفس يفهم الظواهر النفسية في سياقاتها الثقافية.

علم النفس عبر الثقافي (Cross- Cultural Psychology): وضع «بيري» و «ديسن» (Berry & Dasen, 1974) ثلاثة أهداف لمجال علم النفس عبر الثقافي: أولها نقل المعرفة السيكولوجية الراهنة ونظرياتها، وإخضاعها للاختبار في الثقافات المختلفة. وثانيها

استكشاف جوانب جديدة للظاهرة المدروسة في الإطار الثقافي الخاص بالجماعة التي يجري فيها الاختبار. وثالثها دمج ما يتم تعلمه في إطار المقاربتين السابقتين؛ للوصول إلى علم نفس عالمي يصدق على البشر كافة (Segall et al.,1998) . ويجري التعامل مع الثقافة في المقارنات التي تتناولها الدراسات في هذا المجال كمنظومة من المتغيرات المستقلة (independent variables) – المحيطية – تشمل متغيرات سياسية، واجتماعية، وإكولوجية (تتعلق بالبيئة الطبيعية وسبل العيش فيها)، يُفترض أنها تتصل نظريًّا بظواهر نفسية معينة، والتي تُعتمد بدورها كمتغيرات تابعة بطبيعة الحال. وتشمل هذه المتغيرات الأخيرة مختلف الظواهر السلوكية لدى البشر، وإمكاناتهم المعرفية، وأنماط تفاعلهم.

وحيث إن علم النفس عبر الثقافي يقول بعمومية الظواهر النفسية، ووحدة المبادئ التي تحكمها (universalism)؛ فإنه يتبع في الغالب منحى «إيتيكيًّا» (an etic approach) يسمح بإجراء المقارنة عبر الثقافية ضمن المنهج وأدوات الدراسة ذاتها، مع إجراء التعديلات الضرورية لغويًّا واجتماعيًّا. وفي المقابل؛ فإن اتباع منحى «إيميكيّ» (an emic approach) يؤدي إلى الكشف عن معانٍ محلية خاصة بالثقافة، تظل غائبة في الواقع عند اتباع المنحى السابق الذي يفترض عمومية الظواهر السيكولوجية في الثقافات المختلفة. ومن الأمثلة البارزة على الدراسات عبر الثقافية التي تفترض عالمية المبادئ السيكولوجية الدراساتُ التي أُجريت على تقنين اختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، الأمريكية المنشأ، في العديد من بلدان العالم (Hall et al., 2016). وتتضمن مجلات علم النفس عبر الثقافي مقارنات بين الثقافات في الظواهر النفسية المختلفة كالسلوك الاجتماعي، والنمو المبكر، والمعرفة، والانفعالات، وما إلى ذلك من جوانب الحياة النفسية للفرد. ولكن علم النفس عبر الثقافي يظل على أمل الوصول إلى قوانين سيكولوجية عالمية. ويتبنى في هذا المسعى افتراض أننا لا نستطيع فهم الظواهر النفسية دون أخذ السياق الثقافي المحيط بالاعتبار، كما ويتبنى أيضًا افتراض أن المقارنات عبر الثقافية هي الطريق السليم لإنجاز مهمة الوصول إلى هذه القوانين.

ولكن الملاحظة النقدية الأساسية التي تبرز ونحن نستعرض الجوانب المختلفة لعلم النفس عبر الثقافي هي أنه رغم اهتمامه المحوري بالثقافة كسياق مؤثر في أفعال البشر وتفكيرهم، فإن منهج المقارنة الذي يعتمده لا يتيح الكشف عن عمق هذا التأثير وتنوعه. ويعود ذلك إلى أن التركيز يتم فيه على جوانب ثقافية محددة بمعزل عن الجوانب

الأخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن النظريات والمفاهيم الموجِّهة للبحوث فيه – ومناهجها وأدواتها – تبدأ من واقع (هو واقع غربي في الغالب الأعم)، وتضع الثقافة أو الثقافات الأخرى في المقابل ليتم إجراء عمليات المقارنة معها داخل الحدود النظرية والمفاهيمية الموضوعة في الغرب؛ مما يحول دون الوصول إلى الكثير من الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التي استُخدمت في المقارنة. ورغم الثروة الهائلة من المعرفة الثقافية التي أنتجتها هذه المقاربة في البحث، فإن جوانب القصور هذه هي التي أدت إلى بعث الاهتمام بالبعد النفسي من الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وتحوله إلى ما يُعرف الآن بعلم النفس الثقافي، وإلى تطور علم النفس المحلي / المؤصل ثقافيًّا لاحقًا.

علم النفس الثقافي (Cultural Psychology): في حين ينصبّ الاهتمام في علم النفس عبر الثقافي على المقارنات الثقافية، ينصبّ الاهتمام في علم النفس الثقافي على الدراسة المعمّقة للثقافة الواحدة أو جوانب منها، وربما عدد محدود من الثقافات في الدراسة الواحدة. ومما لا شك فيه أن علم النفس الثقافي يسد ثغرة أساسية في علم النفس عبر الثقافي في دراسته للظواهر النفسية في المجتمعات المختلفة، ولا يقتصر على الاعتماد على المقاييس التقليدية التي توغل في التجزيئية (وتكون قد طُوّرت في ثقافة أخرى، غير الثقافة التي يجري دراسة الظاهرة فيها – هي الثقافة الأمريكية في الغالب). وتجدّد الاهتمام بعلم النفس الثقافي منذ أوائل التسعينيات، رغم أن جذوره تمتد بعيدًا في تاريخ علم النفس – وإن ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالأنثروبولوجيا الثقافية في بداياته الأولى، كما سبق أن أشرنا.

وتردّ غرينفيلد (Greenfield, 2000) الاهتمام الأمريكي بالدراسات الثقافية إلى أسباب سياسية تمثلت في سعي الولايات المتحدة إلى الحلول محل الأوروبيين في الهيمنة على المناطق المستعمرة؛ فجرى إنشاء مراكز بحوث لدراسة ثقافات المجتمعات موضوع الاهتمام. وتزايد الاهتمام بعلم النفس الثقافي مع انبثاق الثورة المعرفية في الخمسينيات وتراجُع الهيمنة السلوكية على علم النفس. وتُعتبر نظرية برونر في اكتساب المعاني، التي أشرنا إليها من قبل، واحدة من اللبنات الأولى في بناء علم النفس الثقافي الحديث. واتساقًا مع المنطلقات المعرفية في تفسير الظواهر النفسية؛ وضع شويدر (Shweder, 1990) أسسًا نظريّةً للدراسة السيكولوجية للثقافة، ذهب فيها إلى أن العقل والثقافة يشكّل كل منهما الآخر، ولا بد من دراستهما معًا.

ورغم أن علم النفس الثقافي كان يدرس الثقافات بمعزل بعضها عن بعض في بداياته، متبعًا مقاربة «الإيميك» (an emic approach) – ومتبنّيًا افتراض النسبية الثقافية وخصوصية كل ثقافة؛ فإنه أخذ في الآونة الأخيرة بمقاربة «إتيكية» (an etic approach) يدرس فيها الظاهرة موضوع البحث في أكثر من واحدة من الثقافات. وتتسع دائرة البحث في الثقافة المعينة لتشمل أبعادها التاريخية، والأنثروبولوجية، والإكولوجية، والاجتماعية، في مسعى لمعرفة الأصول الثقافية للظواهر النفسية موضوع الدراسة. مثال ذلك، تُفضي التحليلات لما يُعرف بثقافات «الشرف/الكرامة» إلى ردها إلى البيئة الجغرافية ونمط العيش الرعوي، وغياب السلطة السياسية – الأمنية؛ مما يُلقي على الجماعة مسؤولية حماية نفسها، فتعدّ الثقافة أبناءها سيكولوجيًّا لحمايتها، بما تطوره من قيم ومعايير وأنماط سلوك تخدم هذا الهدف.

ونظرًا لتركيز علم النفس الثقافي على المضامين الثقافية وما تنطوي عليه من اعتقادات ونظريات ومفاهيم وغيرها من عناصر التراث الثقافي الخاص في دراسته للظواهر النفسية؛ فإنه يتبع مناهج تتلاءم وهذه الظواهر؛ من مثل التحليل الإثنوغرافي، والإفادات السردية (narratives)، وتحليل الخطاب (discourse analysis)، والملاحظة المباشرة، وتحليل الخبرات الذاتية. وهي مناهج تتطلب الحساسية الثقافية لفهم الظاهرة النفسية موضوع الدراسة. ولكن علم النفس الثقافي أخذ في الآونة الأخيرة يهتم بدراسة العمليات الثقافية (cultural processes) التي يتم من خلالها تشكّل المضامين الثقافية، من اعتقادات وصور نمطية ومعايير ونظريات ضمنية في الناس والعلاقات؛ ومن ثمّ دراسة انعكاسات هذه المضامين على السلوك والتفكير والتفاعل الاجتماعي؛ مما جعله يستخدم مناهج علم النفس وأدواته التقليدية، بما فيها المناهج التجريبية. وكمثال على ذلك، أشارت البحوث التي اتبعت هذه المناهج إلى أن كثيرًا من العمليات النفسية التي تتحدد من خلالها نظرتنا إلى العالم، ومعايير الصواب والخطأ التي نحملها، وما يستثير دافعيتنا، ويستثير انفعالاتنا = يختلف اختلافًا شاسعًا عبر الثقافات (Lehman, Chiu & Schaller,2004). ولا شك أن اتباع مثل هذا المنهج سيساعدنا على الدراسات التحليلية المأمولة للثقافة العربية للإجابة عن أسئلة من مثل: ما النظريات الضمنية (implicit theories) المتعلقة بأنفسنا، والمتعلقة بالآخرين، التي نحملها كأفراد في مجتمعاتنا العربية، والتي توجّه قراراتنا وخياراتنا الشخصية في الحياة اليومية؟ وهل تقود المؤثرات الثقافية إلى بناء

ذوات مستقلة (independent self) أم إلى بناء ذوات ترابطية (interdependent self)؟ وإلى أي مدى نعتقد أننا قادرون على التحكم بزمام أمور حياتنا؟ وهل نرى أن الذات كينونة ثابتة لا تتغير أم أنها كينونة مرنة قابلة للتغير؟ وهل نرى أن العالم من حولنا شيء ثابت أم نراه مرنًا وقابلًا للتغير؟ ولا شك أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة السيكولوجية الأساسية لا تتأتى إلا بمعرفة الجذور الثقافية لنظم الاعتقادات والنظريات العامة بشأن الإنسان والجماعة، وهي المهمة المنوطة بعلم نفس ثقافي عربي.

علم النفس المحلّي / المؤصل ثقافيًّا (Indigenous Psychology): يتميز علم النفس المحلّي بدعوته إلى التأصيل الثقافي لعلم النفس في المجتمعات المختلفة؛ بمعنى أن يتركز البحث النفسي في المجتمع المعين على أساس من الشروط الخاصة به وبثقافته، من حيث المشكلات التي تُبحث، ومن حيث مناهجه ومفاهيمه ونظرياته (Allwood, 2018; Kim, 2000; Alwood & Berry, 2006). وبالمقارنة، فإن علم النفس الثقافي يدرس الواقع الثقافي القائم من خلال النظريات والمناهج المتداولة – فلا يقف موقف المتحدي على هذا الصعيد – ولكن التحدي لديه يتمثّل بالتمسك بمفهوم النسبية الثقافية، والإصرار على عدم التعميم قبل الفحص الثقافي المتأني.

وينهض بمقاربة علم النفس المحلي أشد المعارضين للهيمنة الغربية على علم النفس، في شرق آسيا بوجه خاص، ويعتبرونها «ثورة أكاديمية» في العلم، وينتقدون البحث النفسي الذي يجري في الدوائر الأكاديمية غير الغربية لأنه مجرد تقليد للبحث الغربي، والأمريكي على وجه الخصوص. وبذلك؛ فإن هذه المقاربة يمكن أن تُفضي إلى علوم نفسية محلية متعددة نتيجة لأخذها بمبدأ النسبية الثقافية (cultural relativisim) إلى حده الأقصى. وينظر علم النفس المحلّي إلى علم النفس الغربي على أنه علم نفس محلّي هو بذاته؛ لأنه يقوم على أسس فلسفية ثقافية غربية، ويجب ألا يُفرض على الثقافات الأخرى، وإنما يجب على أبناء الثقافة الواحدة أن يتولوا إنشاء علم النفس الذي يمثلهم، ويفسّر سلوكهم (Kim, Yang,& Hwang, 2006, pp. 33-34).

ومن النماذج التطبيقية لعلم النفس المحلي تحليلُ «هوانغ» (Hwang,2014) لأسس العلاقات بين الأشخاص المتضمنة في التراث الكونفوشي، والذي توصل من خلاله إلى مفهوم «العلاقاتية الكونفوشية» (أو الاتجاه العلاقاتي الكامن في الكونفوشية Confu-cian relationalism) واستخدامه من ثمّ لدراسة الأخلاق. وقد أنتج هذا الاتجاه العلاقاتي

في الكونفوشية مفاهيم عاطفية – اجتماعية في الثقافات الشرق آسيوية، ليس لها نظائر مطابقة في اللغة الإنجليزية (Greenfield,2000) أو العربية؛ من مثل مفهوم "amae" (وتلفظ «أمَا إيه») في اللغة اليابانية، ويعني «التعلق العاطفي»، ويشير إلى رابطة عاطفية قوية بين شخصين تتضمن اعتمادية شديدة (indulgent dependence)، كالعلاقة بين الطفل والأم والتي تقتضي تكريس الأم جهودها لتلبية حاجات الطفل، وشعورها الشديد بالذنب حين تقصّر في ذلك، وإن كان استخدام هذا المفهوم لا ينحصر في نطاق هذه العلاقة.

ويُميّز إنريكيز (Enriquez, 1993)، أحد روّاد هذا الاتجاه، بين نوعين من التأصيل: التأصيل من الداخل (indigenization from within)، والتأصيل من الخارج (indigenization from without). والنوع الأول من التأصيل هو الذي يتم فيه بناء متطلبات البحث النظرية والإمبريقية داخل المجتمع الثقافي، وعلى أساس من خبرة أبناء الثقافة في ثقافتهم. ويعتمد هذا التأصيل بذلك على المعرفة الثقافية الخاصة بالمجتمع كمصدر أولي (Kim, Yang & Hwang,2006). أما التأصيل من الخارج، فيتم فيه تعديل النظريات والمنهجيات القائمة في علم النفس السائد لتتناسب مع متطلبات الثقافة المحلّية، وهو ما يمكننا اعتباره النوع السائد من التأصيل في المجتمعات غير الغربية. وعليه؛ فإن مقاربة العلوم النفسية المحلّية تدعو إلى إحداث نقلة في البرادايم العلمي، يتم فيها تطوير نظريات ومفاهيم وطرائق بحث في الداخل الثقافي، ومن ثمّ مقارنة النتائج التي يخرج بها هذا البرادايم بنتائج علم النفس السائد (Kim, 2000).

ورغم أن هناك تشابهًا منهجيًّا بين علم النفس المحلي وعلم النفس عبر الثقافي من حيث أدوات البحث وغيرها من الإجراءات التقليدية في علم النفس؛ فإنه في جوهره يلتقي مع علم النفس الثقافي من حيث إنه يستهدف في الأساس سبر أغوار الثقافة والوصول إلى المعالم الرئيسة لها؛ مما يرتبط بسلوك أبنائها ويرتبط بعواطفهم، وبأفكارهم، موثقًا بالدليل العلمي. ولكن واقع الحال هو أن علماء النفس المحليون هم أبناء الثقافة يدرسون ثقافتهم دراسة سيكولوجية، والغالبية الساحقة منهم درست علم النفس في الغرب، وفي الولايات المتحدة، في الغالب الأعم أيضًا، ووقفوا عند عودتهم إلى بلادهم ليعيدوا النظر في مدى انطباق النظريات ووسائل البحث الغربية، ونتائجها على مجتمعاتهم. وقد أحدثوا – إلى جانب المشتغلين في علم النفس عبر الثقافي، وعلم النفس الثقافي – نقلة مهمة في البحث والتنظير في علم النفس، وربما أنهم هم؛ أي: علماء النفس المحلِّيون، الذين أطلقوا الاحتجاج

المدوي الذي زعزع الطمأنينة التي كانت سائدة في أوساط علم النفس التقليدي والمسلِّمة بعالمية رؤيتها السيكولوجية للإنسان. وفي المقابل؛ فإن مقارنات علم النفس عبر الثقافي كانت تتجه إلى عوامل جزئية، أو جوانب ضيقة كالقدرات أو الشخصية، على سبيل المثال، ولم تسمح برؤية الحيز الثقافي الواسع الذي يعكس الملامح الثقافية الشاملة والمميزة للثقافة التي تخضع للدراسة، وجذورها التاريخية.

وتعد التجارب الفلبينية، والهندية، والتايوانية – الصينية، من أبرز تجارب علم النفس المحلي، إلى جانب التجربة اليابانية والكورية وبعض التجارب الإفريقية والأمريكية الجنوبية. وظهر في هذه التجارب جميعها نوعَي التأصيل المشار إليهما؛ وهما: التأصيل من الداخل، والتأصيل من الخارج (Allwood, 2018). ويظل استيفاء الشروط العلمية في البحوث بمختلف مناهجها، وبمختلف المواد الثقافية التي تخضع للدراسة، هو المتطلب الأساسي لأي نوع من التأصيل، ويظل أي استنتاج مرهونًا بما يتوافر له من دليل علمي.

ومن حيث إن الدين يقع موقعًا محوريًّا في أي ثقافة من الثقافات، قديمها وحديثها، ويعمل كعنصر أساسي في تحديد الجماعات الثقافية؛ فقد استقطب أثر الدين في الحياة النفسية الكثير من الاهتمام في الدراسات النفسية عبر الثقافية الحديثة، يستدعي الوقوف قبل الانتقال إلى مناقشة الصلة بين البحث النفسي في البلاد العربية والثقافة العربية.

علم نفس الدين والثقافة: أَوْلى علم النفس اهتمامًا غير مسبوق بدراسة الظاهرة الدينية في العقود الثلاثة الأخيرة، مستخدمًا منظوره الخاص لدراسة أثر الدين في الحياة النفسية للفرد. واتّسعت القاعدة العلمية لدراسة الدين دراسة نفسية لتشمل حقولًا جديدة؛ كعلم النفس التطوري (evolutionary psychology)، وعلم النفس العصبي، وعلم النفس المعرفي، إلى جانب المجالات الأخرى من علم النفس. وتأخذ الإشارة إلى هذه الحقول الجديدة أهمية في سياق البحث في الثقافة من حيث إنها تسعى إلى الكشف عن الأصول البيولوجية والعصبية المرتبطة ببنية الدماغ ووظائفه التي يمكن أن تفسر انتشار الدين في مختلف الثقافات. كما أنها يمكن أن تساعد على فهم شيوع الخبرة الدينية (religious experience) والخبرة الروحانية (spiritual experience) بأبعادهما الشعورية / العاطفية، والعقلية، والجسمية (وإن كانت الخبرة الروحانية تختلف عن الخبرة الدينية من حيث الارتباط بالمقدس). وتطور حقل خاص في علم النفس يعرف

بعلم نفس الدين (psychology of religion)، يبحث في العمليات النفسية المتصلة بالأفكار والمشاعر والممارسات الدينية على نحو مستقل عن المضمون العقائدي للدين (Hood et al.,2009)، وعلى الأسس المنهجية نفسها المعتمدة في حقوله المختلفة.

ويُنظر إلى الأديان في العلوم الاجتماعية كنظم ثقافية (بركات، 2000 ;Belzen, 2010)، تتضمن اعتقادات ومعايير سلوكية، وتقدّم إجابات لأسئلة الوجود الكبيرة كمعنى الحياة ومنتهاها وما وراءها. ولكن الأديان تتميز في أنها تتضمن أفكارًا حول المقدس، وما هو فوق الطبيعي. ويرى علم نفس الدين أن الدين يؤدي وظائف أساسية من حيث إنه يساعد على إشباع الحاجة إلى الشعور بالأمن والحماية، والحاجة إلى اليقين ووضوح المصير، والشعور بالانتماء إلى جماعة والترابط معها (Hood,et al., 2009; Saroglou & Cohen, 2013).

ويحاول علم النفس الديني عبر الثقافي (Taves, 2009) فهم أفكار البشر، وانفعالاتهم وسلوكهم المتعلق بالدين والإجابة عن أسئلة من مثل: هل تتطابق الخصائص السيكولوجية في الأديان المختلفة (من حيث المكونات، والأبعاد) أم أنها تتباين عبر السياقات الثقافية والدينية المختلفة؟ وماعلاقة التدين بالشخصية والقيم والسلوك الاجتماعي والصحة النفسية والعقلية للإنسان؟ وقد جرى الكثير من البحث النفسي عبر الثقافي حديثًا للإجابة عن مثل هذه الأسئلة (Taves,2009; Saroglou & Cohen, 2013) ؛ فأشارت البحوث التي أُجريت في هذا المجال إلى أن هناك مظاهر عامة مشتركة بين الأديان، من جهة، ومظاهر خاصة بالثقافة، من جهة أخرى، تكمن في الاعتقادات والممارسات الدينية (Berry et al., 2011; Norenzayan & Heine, 2005).

وتشير البحوث الوافرة في مجال علم نفس الدين إلى وجود آثار إيجابية للتدين في السلوك الاجتماعي، والصحة النفسية على مستوى الفرد في مختلف الأديان (Masters & Hooker, 2015). وعلى صعيد المقارنة بين الأديان، أشارت بحوث أيضًا إلى أن التدين لدى أتباع الأديان السماوية يرتبط بتفضيل القيم المحافظة على قيم الانفتاح والهيدونية (eg. Saroglou , Delpierre, & Dernell, 2004)، إلا أن العلاقة بين الدين والصحة عبر الأديان تتأثر بالأوضاع العامة للبلدان؛ إذ يرتبط التدين بدرجة أعلى بالإحساس بجودة العيش عبر الأديان الرئيسة الأربعة: الإسلام والمسيحية والهندوسية والبوذية، ولكن هذا الارتباط لا يظهر إلا في البلدان التي تعيش ضائقة

اقتصادية، وليس في البلدان التي تتمتع بالرفاهية؛ إذ لا يظهر مثل هذا الارتباط (Diener, Tay, & Myers, 2011).

وبعد مراجعة شاملة للبحوث المقارنة للأديان وارتباطاتها النفسية عبر الثقافات، بما في ذلك الأديان السماوية فيما بينها، ومقارنة بالديانات الشرق آسيوية من حيث الصحة النفسية والاتجاهات والقيم الاجتماعية والتوجه الإنجازي؛ خرج ساروغلو وكوهن (Saroglou & Cohen,2013) باستنتاج أن الطرائق التي تعبر بها الخبرة الدينية عن نفسها والعمليات السيكولوجية الخاصة المتعلقة بالدين = تختلف بدرجة كبيرة فيما بين الجماعات وفقًا لعوامل الإثنية، والموقع الاجتماعي – الاقتصادي، والخلفية التراثية الدينية؛ وأن هناك حاجةً ماسة لإجراء بحوث منظّمة على قاعدة نظرية ومنهجية عبر ثقافية صارمة لتمييز التأثيرات الثقافية عن التأثيرات الدينية؛ مما يستدعي إدخال تحليلات سوسيولوجية وتاريخية وأنثروبولوجية إلى جانب التحليلات النفسية؛ لفهم أثر الدين في الحياة النفسية للفرد.

علم النفس العربي والثقافة العربية:

ما الصلة القائمة بين البحث النفسي الجاري في البلاد العربية وبين الثقافة العربية المعاصرة؟ وهل وصل الاهتمام بالثقافة، الذي يظهر في البحث النفسي العالمي في الوقت الحاضر، إلى البحوث العربية في هذا الميدان؟ ومما لا شك فيه أن هناك قدرًا كبيرًا من البحوث يأخذ طريقه إلى النشر في المجلات المتخصصة في علم النفس، والحقول المجاورة، في الدوائر الأكاديمية العربية، إضافة إلى ما يُقدّم من رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات. وعلى أي حال؛ فإن واحدًا من أوجه القصور في البحوث النفسية العربية هو افتقارها إلى مراجعات لأدب الموضوعات (literature reviews) التي يجري البحث فيها، واستخلاص الاتجاهات الرئيسة لنتائج البحوث المُراجعة؛ الأمر الذي يفقدنا ثمرة رئيسة من ثمار البحث العلمي ألا وهي التراكمية التي تجمع الجهود، وتكشف الظواهر بما ينتج عنها من معرفة، فلا بد أن يتضمن ذلك الكم الكبير من البحوث المتفرقة ما هو جدير بالاعتبار كمعرفة نفسية أصيلة ذات فائدة نظرية أو تطبيقية أو كلتيهما. غير أن العديد من علماء النفس العرب ذوي الخبرة في البحث والتدريس الأكاديميين يعلنون عدم رضاهم عن واقع البحث النفسي في العالم العربي، من حيث صلته بالثقافة العربية، وبواقع المجتمعات العربية، بوجه عام. ولعلّ أبرز من

يُعبّر عن هذا الاتجاه هم: أحرشاو (1994)، وأحمد وغيلين (Ahmed & Gielen, 1998) ورمضان أحمد (Ahmed, 2004)، وسمر ذبيان وزملاؤها (Zebian, et al., 2007)، وعبد الستار إبراهيم (Ibrahim,2013)، وفؤاد أبو حطب (Abou Hatab, 1992, 1993)، ومصطفى حجازي (1993).

وبالنظر إلى التقييمات العامة لواقع علم النفس في العالم العربي؛ نجد أنها تلتقي على عدد من النقاط، أهمها وصف العلاقة بين علم النفس العربي وبين علم النفس الغربي بأنها تفاعل أحادي الجانب يقوم على التبعية الفكرية، وأن معظم جهود علماء النفس العرب كانت مجرد محاكاة وتقليد، ولم يقدموا نماذج نظرية أصيلة. ويعود ذلك من وجهة نظر «أبو حطب» مثلًا إلى المبالغة في تقدير الثقافة المهيمنة على علم النفس، مقارنة بالثقافة المحلية؛ مما يقلِّص مشاعر الثقة بالنفس، ويكبت الإبداع (Abou Hatab, 1997). ويشارك معظم الباحثين الناقدين لوضع البحث النفسي في العالم العربي وجهة نظر أبو حطب هذه، إضافة إلى إقرارهم بغياب المحاولات الجادة لبناء معرفة سيكولوجية تعكس خصوصيات المجتمع العربي وتحدياته، الآنية والمستقبلية. غير أن عالم النفس المغربي «الغالي أحرشاو» (1994) يرى، محقًّا، أن هناك شيئًا من التراكم النسبي يأخذ مجراه حاليًّا من الكتب والأطروحات الجامعية والمقالات. ولكن البحث السيكولوجي لا يزال يفتقر، من وجهة نظره، إلى الشروط اللازمة لإنتاج المعرفة الهادفة والمرتبطة بواقع الإنسان العربي، والمؤسسات التعليمية والاجتماعية والإدارية.

وبطبيعة الحال؛ فإن وضع علم النفس في البلاد العربية يعكس وضع العلوم الاجتماعية فيها بوجه عام، إن لم نقل وضع العلوم بعامة. وكان الأخذ بالعلوم الغربية في بداية إنشاء الجامعات العربية الحديثة هو القاعدة، بما فيها العلوم الاجتماعية. ولم يُفْضِ التفاوت في المستوى العلمي في ذلك الحين، بوجه خاص، بين الجامعات العربية وبين الجامعات الغربية التي تخرّج فيها الرعيل الأول من المتخصصين العرب في العلوم الاجتماعية = إلى التساؤل حول التحيزات الثقافية الممكنة في هذه العلوم. ولم يكن الحال مختلفًا في دول العالم النامي – الخارج حديثًا، أو على وشك الخروج، من الاستعمار.

ويعتمد أعضاء الهيئات التدريسية في بحوثهم، وفي رسائل الماجستير والدكتوراه التي يشرفون عليها، على أدوات قياس مترجمة، ومعدّلة في كثير من الأحيان، أو مبنية على غرار مقاييس أمريكية. ويجري نقل النظريات والمفاهيم المتداولة في علم النفس

السائد إلى اللغة العربية، ويتم جمع البيانات اعتمادًا على عينات محلية. فنتائج مثل هذه البحوث ليست عديمة الفائدة؛ شرط التزامها بقواعد البحث العلمي. وكان الأخذ، ربما غير الواعي، بمبدأ العالمية في النظر إلى النفس الإنسانية، جهلًا بمبدأ النسبية الثقافية ربما، هو الذي قادنا إلى هذه الممارسات. وحال البحوث هذه يستوفي بذلك عددًا من شروط الحساسية الثقافية التي سنعرضها بعد قليل ضمن الدراسة التقييمية للبحوث العربية التي أجرتها ذبيان وزملاؤها (Zebian et al., 2007). وهذا لا يعني أننا لسنا بحاجة إلى مراجعة ثقافية شاملة نعيد فيها النظر في المعطيات الأساسية لعلم النفس الذي نستخدمه، في ضوء الثقافة العربية. وما يجري من بحث حتى الآن يمكن اعتباره تأصيلًا من الخارج، إلا أننا نظل بحاجة إلى تأصيل من الداخل، يدرس الحياة الاجتماعية والاعتقادات والنظريات الضمنية والمفاهيم التي توجه تفكير الفرد العربي وسلوكه.

تقييم الحساسية الثقافية في البحوث العربية في علم النفس:

قامت سمر ذبيان وزملاؤها (Zebian et al., 2007) بمراجعة دقيقة لعينة من الدراسات التي أجراها باحثون عرب ونُشرت باللغة الإنجليزية في مجلات عالمية متخصصة فيما بين عامي (1950 – 2004)، وقدّمت فيها أدلة موثوقة (نسبيًا – مقارنة بمعظم المقيّمين الآخرين الذين اعتمدوا على خبرتهم الشخصية) على محدودية الحساسية الثقافية (أو محدودية الصلة الثقافية) في الدراسات التي جرت مراجعتها. وقد اعتمدت ذبيان وزملاؤها في هذه الدراسة أسلوب تحليل المضمون لتقييم مستوى الحساسية الثقافية في تلك الدراسات، وطوّرت مقاييس خاصة لهذا الغرض بناء على جهود سابقة في إطار تقييم الأبعاد الثقافية في الدراسات النفسية) من مثل: (Adaire, et al., 1999). فأشارت النتائج إلى انخفاض درجة الحساسية الثقافية في البحوث التي تمت مراجعتها على معظم الأبعاد التي خضعت للتقييم. ومن الجدير بالذكر أن نتائج هذه الدراسة تضمنت دعمًا لفكرة "الاعتمادية الفكرية" التي أثارها عدد من علماء النفس العرب المنتقدين للوضع الراهن للبحث النفسي في العالم العربي، والمتمثلة بأخذ النظريات والمفاهيم الغربية دون تقييم لملاءمتها الثقافية، وقابليتها للتطبيق في الثقافة المحلية.

وتتمثّل معايير الحساسية الثقافية في البحوث النفسية بالاعتماد الصحي على الذات، والاستجابة لحاجات المجتمع، وصدق المنهج؛ مما يعمل بدوره على تطوير علم نفس ملائم. ويتطلّب ذلك في التطبيق العملي اختيار المشاركين الممثلين للفئات الثقافية، أو

الوصول إلى تعميمات في حدود الفئات المَمَثّلة، والانتباه إلى ملاءمة المهمات والاختبارات والمواد المستخدمة في جمع البيانات للثقافة المحيطة. أما الاعتماد الصحي على الذات فيشمل التعامل مع المفاهيم والنظريات تعاملًا نقديًّا في مختلف مراحل البحث. إضافة إلى البحث عن المراجع المحلية (Zebian et al., 2007)، وكل ذلك من شأنه خلق تراث سيكولوجي خاص بالثقافة، يعتمد مبدأ التأصيل من الخارج المُقترح في مقاربة علم النفس المحلّي.

وعلى نحو مماثل لما قامت به ذبيان وزملاؤها، أجرى خليفة (2000) تقييمًا للحساسية الثقافية في البحوث العربية المنشورة حول الذكاء والإبداع والموهبة معتمدًا تحليلًا مماثلًا للمضمون الذي استخدمته ذبيان وزملاؤها، وتوصل من حيث الأساس إلى نتائج مماثلة. وربما تكون هذه الدراسة، إلى جانب دراسة ذبيان، هما الدراستان الوحيدتان اللتان تقدمان أدلة موضوعية على محدودية الحساسية الثقافية في دراسات علم النفس في العالم العربي، ضمن نطاق الدراسات التي جرت مراجعتها.

ويدخل كتاب عمر هارون الخليفة «آفاق توطين علم النفس في العالم العربي» (الخليفة، 2011) ضمن الجهود الرامية إلى تأصيل أو توطين علم النفس (وفق اصطلاحه) في بلدان العالم النامي؛ لإنشاء علوم نفسية على أسس ثقافية محلية. وتهدف عملية التوطين المقترحة إلى تطوير نظام نظري أو معرفي يتواءم مع الحقائق الاجتماعية والثقافية للأفراد والجماعات في المجتمع العربي. ولكن علوم النفس المحلية أو الوطنية تحتاج بداية إلى فهم سيكولوجيتها الخاصة من خلال تحليل لواقعها الثقافي بأبعاده المعرفية والتاريخية والفلسفية والروحانية. واتساقًا مع مصطلحات علم النفس المحلّي، يستخدم خليفة مصطلح توطين علم النفس من الداخل، أو كما يسميه «التوطين من ضمن» (indigenization from within)؛ (أي: توطينه بناء على المعطيات الثقافية الخاصة التي تتصل بالظواهر النفسية، وهو ما أشرنا إليه بالتأصيل من الداخل) للدلالة على: (1) علم النفس في التراث العربي، و(2) علم النفس في التراث الشعبي أو الفولكلوري الراهن. ويشير الأول إلى إسهامات تاريخية متميّزة ذات صلة وثيقة بعلم النفس قدّمها العلماء العرب المسلمون؛ كإسهامات ابن سينا وابن الهيثم في مجال الإحساس والإدراك (الخليفة، 2011، 76–79). وأما الأساس الثاني لعملية توطين علم النفس من الداخل التي يقترحها الخليفة، فيتمثّل في الثقافة الشعبية الراهنة، المختزنة في كتب الدين والأدب والأساطير وكتب الفولكلور.

ويدخل في هذا النطاق أيضًا التصنيفات الشعبية للأمراض والاعتقادات والممارسات المتصلة بها، وما يمكن أن يوصف بالمعرفة السيكولوجية العامة، وما تتضمنه من مفاهيم وأفكار ونظريات. «... فيستجيب علم النفس الوطني لمتطلبات الحساسية الثقافية، ويعالج الثقافة العربية على أنها مصدر البناء المفاهيمي والنظري والمنهجي، وما تتضمنه من تبصرات سيكولوجية» (الخليفة، 2011، 25). ويقدم عمر الخليفة بذلك أساسًا يمكن البناء عليه في المراجعة الثقافية المأمولة لعلم النفس في العالم العربي.

نماذج من الدراسات الثقافية وعبر الثقافية التي شملت بلدانًا عربية:

تقع الدراسات المتضمّنة في هذا الجزء من ورقة البحث في مجالات محورية من ميدان الثقافة وعلم النفس تقوم على مفاهيم رئيسة أفرزها البحث النظري والإمبريقي الحديث في هذا الميدان، وتتمثل في التوجهات الثقافية: الفردية مقابل الجماعية، والترابطية مقابل الاستقلالية. وتزودنا البحوث المشار إليها هنا بدلائل أولية على موقع الثقافة العربية على هذه الأبعاد، كما تعطي البحوث المتضمنة في مجالات التفاعل الاجتماعي والشخصية والذات مؤشرات مماثلة. وعلى أي حال؛ فإن الدراسة التي نتناولها بعد قليل تمتاز بأنها دراسة عبر ثقافية، محكمة المنهج، استهدفت التحقق من موقع العرب على الأبعاد الثقافية التي استقطبت اهتمام المشتغلين في علم النفس والثقافة في الثلاثين سنة الماضية على الأقل، وتقدم نموذجًا لدراسة عبر ثقافية مفيدة.

«البروفايل» الثقافي للعرب: بنى «سان مارتن» وزملاؤه هذه الدراسة لاستكشاف «البروفايل» الثقافي، أو المعالم النفسية الثقافية للعرب (San Martin, et al.,2018) مقارنة بالجماعات الثقافية التي نالت القدر الأكبر من الاهتمام في علم النفس عبر الثقافي، والمتمثّلة بالثقافات الغربية من جهة، والثقافات الشرق آسيوية من جهة أخرى. وغني عن البيان أن الباحثين اعتبروا العرب مجموعة ثقافية رئيسة بين ثقافات العالم، ولكنهم أكدوا أيضًا أنها لا تأخذ المكانة الموازية لأهميتها التاريخية والجيوسياسية في البحث عبر الثقافي. وقد تم افتراض أن البروفايل السيكولوجي الخاص بالعرب سيكون متميزًا عن البروفايل السيكولوجي الغربي، كما سيكون متميزًا عن البروفايل الشرق آسيوي، وإن كان يحمل في الوقت نفسه عنصرًا مشتركًا مع كل منهما.

واستنادًا إلى مصادر تاريخية وأنثروبولوجية إلى جانب المنظور الإكولوجي – الاجتماعي (socioecological perspective) في البحث الثقافي، رأى الباحثون أن الهوية

العربية انبثقت من مناطق قاسية مناخيًا وإكولوجيًا، جعلتهم يعتمدون على القبيلة من أجل البقاء. وجعلت القبيلة تُطالب أبناءها بالمحافظة على مكانتها بين القبائل، والدفاع عنها في مواجهة الغزاة، في غياب حكومة مركزية قبل الإسلام، وتُكافئهم بمنحهم الحماية، وتمجيد بطولاتهم الفردية. وتوقّع الباحثون، بناء على ذلك، أن يظهر لدى العرب ميل إلى الترابطية (interdependence) – يشتركون فيه مع الشرق آسيويين – وميل إلى توكيد الذات (self - assertiveness) – يشتركون فيه مع الغربيين. وسيختلفون بذلك عن الشرق آسيويين الذين يتميزون بالتواضع، والميل إلى مواراة الذات (self- effacement)؛ فالترابطية الصينية وإن انبثقت هي أيضًا عن ظروف إكولوجية – اجتماعية تطلّبت الترابطية، فإن تلك الظروف تطلّبت درجة أعلى من التعاون والانسجام داخل الجماعة؛ نظرًا لما تحتاج إليه الأرياف الصينية الخصبة والشاسعة المحيطة بهم (والتي تزرع بالأرز) من تضافر في الجهد وانسجام داخل الجماعة.

وقد أتت نتائج الدراسة الأولى من مشروع البحث هذا متسقة مع الفرضية التي انطلقت منها؛ إذ ظهر ما يشير إلى أن العرب الذين شملتهم الدراسة (وهم مجموعة من السعوديين، ومجموعة من اللبنانيين تم انتقاؤهم قصدًا من هذين البلدين المختلفين من حيث أسلوب الحياة المعاصرة)، يُظهرون النزعة الترابطية على غرار ما يُظهره الشرق آسيويين، وأنهم يُظهرون في الوقت نفسه الميل إلى توكيد الذات على غرار ما يظهر لدى الغربيين (من الأمريكيين والبريطانيين والألمان) الذين جرت مقارنتهم بهم. ولم تظهر فروق بين المسلمين والمسيحيين على هذا الصعيد في العينة اللبنانية التي شملتها الدراسة؛ مما أخذه الباحثون على أنه دليل على صلة التوجّه المُقاس بالبعد الثقافي الشامل لأبناء الثقافة العربية، وليس على أنه متصل بالبُعد الديني.

وربما تكشف دراسة مثل هذه التوجهات الثقافية والعمليات النفسية الدالة عليها = البنى الثقافية العميقة الكامنة وراءها والمشتركة بين أبناء الثقافة الواحدة (Greenfeild, 2000). غير أننا في الوقت نفسه لا بد أن ننتبه إلى انعكاسات هذه التوجهات على المستويين الفردي والجماعي، وبخاصة في الحالة التي تتضارب فيها أهداف الفرد الشخصية مع أهداف الجماعة؛ أي: حين يفوق الدافع إلى توكيد الذات الدافع إلى الترابط مع الجماعة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من صراع داخل الجماعة.

وقد قادت دراسة عبر ثقافية حديثة لِـ «فغنولز» وزملائها (Vignoles et al., 2016)

إلى نتائج مشابهة لما توصل إليه «سان مارتن» وزملاؤه من حيث جانب من الوصف الثقافي للذات العربية. واعتمدت «فغنولز» وزملاؤها على مقاييس معدّلة عبر ثقافية تم جمع بيانات حولها من 49 دولة في دراستين كبيرتين. فظهر أن العينات الشرق أوسطية (والتي أُخذت من لبنان وعُمان) شددت على الاعتماد على الذات والاتساقية جنبًا إلى جنب مع التأثّر بالآخرين والارتباط بهم؛ مما اعتبرته الباحثة وزملاؤها متسقًا مع تصوير الثقافات الشرق أوسطية (العربية هنا) كثقافات «الشرف/الكرامة» "honor cultures" تجمع بين تأكيد الصلابة والرجولة مع تعزيز الذات من جهة، وبين الاهتمام الشديد بالآخرين وبالتبعات الاجتماعية لما يقوم به الشخص من أفعال من جهة أخرى. وتأتي أهمية هذه النتيجة من أنها تكشف جانبًا من تمثّلات الذات الاجتماعية للفرد العربي، وتتسق مع دراسات إثنوغرافية وتحليلات اجتماعية (بركات، 2000 ; Gregg, 2005)، وتساعد على فهم الذات العربية وموقع الآخر لديها، مما سنناقشه لاحقًا في هذا التقرير.

التفاعل الاجتماعي: يندرج التفاعل اليومي للأفراد ضمن جوانب الحياة الاجتماعية التي ينعكس عليها التوجه الثقافي للمجتمع. فقد أجرى «ويلر» وزملاؤه (Wheeler et al.,1989) مقارنة بين ثلاث مجموعات من الطلبة الجامعيين من كل من الصين (هونغ كونغ) والولايات المتحدة والأردن؛ لاستكشاف آثار التوجه الثقافي للمجتمع في التفاعل الاجتماعي للأفراد في حياتهم اليومية. فأشارت النتائج إلى أن نمط التفاعل الاجتماعي للأمريكيين (كممثلين للثقافة الفردية) يختلف عن نمط التفاعل الاجتماعي للصينيين والأردنيين (كممثلين للثقافة الجماعية) من حيث كمية التفاعل ونوعيته؛ فظهر أن الأمريكيين يجرون قدرًا أكبر من التفاعلات اليومية غير الجماعية، وأنهم يخرجون من هذه التفاعلات بقدر أكبر من الاستمتاع، إلا أن التفاعلات الصينية كانت الأكثر حميمية، تلتها التفاعلات الأردنية. وظهر أن الأردنيين هم الأقل استمتاعًا بتفاعلاتهم مقارنة بالجماعتين الثقافيتين الأخريين. وردّ الباحثون ذلك إلى الضغوط الاقتصادية – السياسية التي تحيط بالأردنيين مقارنة بالأمريكيين والصينيين. إلا أن ربط هذه النتيجة بعوامل اقتصادية سياسية فحسب قد لا يكون كافيًا لتفسيرها دون النظر إلى عوامل نفسية – ثقافية محتملة تحكم العلاقات البين شخصية وما يكتنفها من توقعات؛ الأمر الذي يؤكد أهمية الإلمام بالثقافة المحلية لتفسير نتائج البحوث في هذا المضمار، وهو ما يشكّل مشروعًا مستحقًّا للبحث على مستوى ثقافي عام، ويؤكد في الوقت نفسه قيمة مثل هذه الدراسات على المستويين الثقافي وعبر الثقافي، ومساهمتها في فهم الثقافة المحلية، وما يؤثر في العلاقات فيها.

الشخصية: مع أن البحث عن الخصائص الشخصية المميزة للثقافات توقّف لفترة من الوقت؛ نظرًا لعدم توافر الأدلة الداعمة لهذه الفكرة، فإن هناك عودة إلى الاهتمام بهذا الموضوع (McCrae, et al., 2004) وقد استُخدم مقياس العوامل الخمسة للشخصية (McCrae. & Costa, ; Revised NEO Personality Inventory)، والذي يقيس: الانبساطية، والانطوائية، وحُسن المعشر، والانفتاح على التجربة، ويقظة الضمير = على نطاق واسع، وتمت ترجمته إلى العديد من اللغات، بما فيها اللغة العربية، وجرى تطبيقه في العديد من الدول العربية من بينها مصر (يونس، وخليل، 2007)؛ والكويت ولبنان، McCrea & Terracciono,2005) على سبيل المثال. واستُخدم عبر العالم بناء على افتراض أن المكونات السيكولوجية التي يقيسها مكونات أساسية في الشخصية تتجاوز اللغة والثقافة. ومع أن نتائج الدراسات اتفقت بوجه عام على البنية العاملية للشخصية عبر الثقافات، فإنه لوحظ شيء من الاختلاف فيها، كما ظهرت عوامل غير متضمنة بين العوامل الخمسة الرئيسة في المقياس؛ مما يشير إلى فروق ثقافية لا تزال موضع دراسة.

ولأن مقاييس الشخصية المتداولة أمريكية المنشأ في الغالب؛ اتجهت جهود التأصيل الثقافي لقياس الشخصية في أكثر من ثقافة إلى بناء مقاييس تعتمد على اللغة المحلية وما تتضمنه من أوصاف للشخصية كبديل لمقاييس الشخصية التقليدية. ويُعرف هذا المنحى بالمنحى النفسي – المعجمي / اللغوي (psycholoexical approach)، ويقوم على افتراض أن مفردات اللغة تختزن أكثر السمات الشخصية أهمية لدى الجماعة، وأن تمييز هذه المفردات يمكن أن يقود إلى نموذج للشخصية مقبول علميًّا.

وتقع دراسة «زينون» وزملائها (Zeinoun et al., 2017) ضمن هذا الخط من البحوث، والذي يهدف إلى استنباط سمات الشخصية من اللغة الأم المتبناة في الثقافة. وتشكل هذه الدراسة أولى دراسات مشروع طموح يهدف إلى تعرف بناء الشخصية العربية من منظور محلّي أصيل. ولكن الدراسة اقتصرت جغرافيًّا على بلاد الشام: لبنان، وسورية، وفلسطين/الضفة الغربية، والأردن، كمرحلة أولى من مراحل المشروع. وتم استلال (2659) كلمة من معجم للغة العربية باللغة الفصحى تتعلق بالشخصية. ووفقًا لإجراءات البحث المتشددة المتبعة في هذا الموضوع، تم استبقاء (167) وصفًا. وأسفر التحليل العاملي الذي أُجري على هذه القائمة عن ستة عوامل، تتسلسل بحسب الأهمية على النحو الآتي: (1) رفعة الخلق مقابل اتجاه غير أخلاقي؛

(2) الاستقامة والجدية؛ (3) العاطفية الإيجابية، والميول الاجتماعية؛ (4) السيطرة؛ (5) حسن المعشر (agreeableness) ويتضمن الصبر، والتسامح مقابل الخذلان، والتفاخر؛ (6) الاستقرار مقابل عدم التوازن الانفعالي (emotional stability). أما المفهومان اللذان تخلّلا أو اخترقا (وفق تعبير الباحثين) العديد من العوامل، فكانا مفهوم الشرف (honor)، ومفهوم القوة (power). ولعل بروز هذين المفهومين وبروز العامل الأول كمؤشر على الأخلاق (Morality) يدل على القيم الأكثر أهمية في الثقافة، وهي القيم التي توجه السلوك في الثقافات التي تسمى ثقافة الشرف والكرامة، وحضور هذه القيم في الثقافة جعلها أقوى حضورًا في اللغة. ويبدو جليًّا أن نتائج هذه الدراسة تتسق مع نتائج الدراسات الإثنوغرافية التي أشرنا إليها، ومع نتائج الدراستين عبر الثقافيتين لِـ«سان مارتن» وزملائه، و«فغنولز» وزملائها.

وما يمكن ملاحظته أيضًا هو أن ما تكرر في الجانب السلبي من الشخصية هو العجرفة، والتفاخر، وقلة التواضع، والخذلان. إضافة إلى ظهور عامل خاص بالسيطرة، وهو ما لا يظهر ضمن العوامل الخمسة في المقياس الأمريكي المتداول على نطاق واسع في هذا المجال. ولا شك أن السياق الذي نبحث فيه يتطلب إمعان النظر في وجوه الشخصية المختلفة، وفي حالاتها السلبية والإيجابية. فهل نحن أمام ثقافة "الشرف" والاعتداد بالنفس، والدافع إلى القوة ؟ وكيف تنعكس هذه الأبعاد الشخصية على التفاعل الاجتماعي، وعلى مدى ما يتحقق من انسجام داخل العلاقات الشخصية؟

الذات العربية وردود الفعل للنجاح والفشل: بَحَث ماهر أبو هلال (أبو هلال، 2016) مفهوم الذات وعلاقته بالإنجاز الأكاديمي من جهة، وبتفسيرات الطلبة لنتائجهم الإنجازية من جهة أخرى، في عينات من طلبة دولة الإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عُمان، على مدى عشرين عامًا تقريبًا. وبناء على ما يصل إلى (40) بحثًا في هذا المجال، وضع أبو هلال كتابًا بعنوان: «معالم الذات العربية: دراسات في الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان»، استنتج فيه أن مفهوم الذات واعتقاد الفرد بشأن قدرته على النجاح، تشكّل محددات أساسية لمستوى الإنجاز الأكاديمي الذي يحققه، وأن الطلبة الذكور أميَل إلى رد أسباب النجاح والفشل إلى عوامل خارجية مقارنة بالإناث؛ بمعنى أنهم لا يحمّلون أنفسهم مسؤولية نتائجهم الإنجازية بمقدار ما تفعل الإناث. ولكن الطلبة بوجه عام يميلون إلى رؤية الذكاء كقدرة نامية، وأن الذين يشعرون منهم بقدرتهم على التحكم بأمور حياتهم يُنجزون إنجازًا أفضل ممن يعتقدون أنهم لا يمتلكون مثل هذه القدرة بالقدر نفسه، وأن النسبة الأكبر منهم

تُفضل العمل الجماعي؛ مما اعتبره الباحث مؤشرًا على توجه ثقافي جماعي. ولكن أبو هلال يخرج من مجمل بحوثه بنتيجة مفادها أن هناك تناقضًا في الذات العربية – بدلالة استجابات طلبة عرب على مدى فترة لا بأس بها من الزمن – وأن هناك غموضًا في تقييمهم لذواتهم، وافتقارًا إلى الثقة بالقدرة على الفعل والتغيير (أبو هلال، 2016، 160، 192). ولعل المقارنة الآتية تساعد على إلقاء الضوء على دور العوامل الثقافية في التوجهات الإنجازية للأفراد.

الذات العربية بين الفردية والجماعية من منظور إنجازي: يقع العالم العربي في منتصف العالم بين نموذجين حضاريين مُنجزين في هذا العصر، هما نموذج الثقافة الأوروبية – الأمريكية، ونموذج الثقافة الشرق آسيوية، ولكل منهما عناصر قوة، ومستوى من الإنجاز لا يستطيع أحد إنكاره. وما يفعله البحث في علم النفس والثقافة هو أنه يكشف العناصر السيكولوجية المميزة للثقافات المُنجزة. وفي ضوء البحوث التي عرضناها قبل قليل، يبدو أن الثقافة العربية تشترك في خصائص محورية مع كلٍّ من هذين الطرفين؛ إذ إنها تُشارك الشرق الترابطية، والجماعية/الجمعوية، وتُشارك الغرب توكيد الذات، والاستعداد للإعلاء من قدرها (اجتماعيًّا ربما بالدرجة الأولى). كما بيّنت التحليلات الثقافية الموسّعة، والأدلة العلمية الوافرة التي أُتيح لنا عرض بعض منها في النصف الأول من هذه الورقة؛ فإن الدافعية للإنجاز للنموذجين الغربي والشرقي تكمن في التوجهات الثقافية العامة التي تأخذها مجتمعاتها، والأصح أن نقول: التي تطورت لدى مجتمعاتها؛ إذ نجد أن المفاهيم المركزية للتوجه الثقافي الفردي هي: الاستقلالية، والتوجيه الذاتي، ومسؤولية الفرد عن قراراته الحياتية. وعلى أساس من هذا التوجه الثقافي الاجتماعي؛ تتشكّل الذات الاستقلالية التي يعمل النظام الأسري والتعليمي والاجتماعي بأبعاده المختلفة على تطويرها ودعمها.

وفي المقابل؛ فإن التوجه الثقافي الجماعي الذي تتميز به الثقافات الشرق آسيوية، يحيط الأفراد منذ نعومة أظفارهم بأجواء ترابطية، ويُوجّهون فيه إلى التركيز على العلاقات والحياة من خلالها. ويؤكد هذا التوجه الانسجامَ، والتوازن في العلاقات أكثر من أي شيء آخر. وتُعتبر جودة العلاقات معيارًا لجودة الحياة. وربما يكمن أحد أسرار تكيف الثقافة الصينية للعصر الحديث وإنجازيتها المدهشة في مفهوم تطوير أو تحسين الذات الذي تشترطه، والذي يُطالَب فيه الفرد أن يبذل كل ما يستطيع من جهد لتحقيق هذا التطوير، وتوظيفه من ثمّ في خدمة الجماعة. ويُحمّل الفرد هنا مسؤولية نفسه إلى جانب مسؤوليته عن نجاح الجماعة، والإخلاص المتفاني في خدمتها.

وإذا عدنا إلى موقعنا بين هذين النموذجين المنجزين، فإن التوجه الجماعي والترابطية اللذين نشترك فيهما مع شرق آسيا ربما لا يشترط القدر نفسه من بذل الجهد والإحساس بالمسؤولية الشخصية عن تحقيق أهداف الجماعة ونجاحها بمقدار ما يشترط التوجه الجماعي الشرق آسيوي. وفي المقابل؛ فإن التوجه الثقافي الفردي الذي نشترك فيه مع الغربيين في توكيد الذات والاعتداد بها = ربما لا تمنحنا ثقافتنا فيه القدر الكافي من حرية القرار الذي يقتضيه هذا التوجه، لنشعر بالقدر الكافي من المسؤولية إزاء ما يجري في حياتنا، وما تصل إليه الجماعة التي ننتمي إليها من نجاح أو إخفاق، ويشيع بيننا اعتقاد أن القدَر هو الذي يتخذ القرار.

إن الدراسات النفسية القائمة على أساس ثقافي تساعدنا على الكشف عن العوامل الثقافية التي تشكل الشخصية، ومكوناتها الدافعية، وتصوراتها بشأن الذات والعالم، وأسس العلاقات مع الآخرين، وكيف يُنشّأ الأطفال، وما أولوياتُ الحياة، وقيمها الأساسية، وما يصعب حصره من آثار تتعدى الصعيد النفسي للفرد إلى الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتحدد تقدير الفرد لذاته، وتقدير الجماعة لذاتها ولإمكاناتها ومكانتها بين الجماعات.

وتزودنا علوم النفس الثقافية التي تم تناولها في هذا التقرير بأساس متين لبناء مشروع جماعي عربي يجري فيه تقاسم المهمات الكبيرة المطلوبة للدراسة النفسية للثقافة العربية الكلية، والثقافات العربية المحلية، على أسس علمية تستند إلى معطيات علوم النفس الثقافية الآخذة في التطور، إلى جانب العلوم الاجتماعية الأخرى، وإلى معطيات علم النفس الاجتماعي الذي تتخلل مفاهيمه والعمليات النفسية التي يدرسها مجال الثقافة وعلم النفس بكامله؛ والمتمثلة في التأثير الاجتماعي، والعمليات المعرفية الاجتماعية، وديناميات العلاقات الاجتماعية؛ فأثر الثقافة يأخذ مجراه من خلال هذه العمليات.

المراجع:

أبو حطب، فؤاد (1993). *مشكلات علم النفس في العالم الثالث: حالة الوطن العربي. في علم النفس وقضايا المجتمع المعاصر (9-21)*. الرّباط: جامعة محمد الخامس.

أبو هلال، ماهر (2016). *معالم الذّات العربيّة: دراسات في الإمارات العربيّة المتّحدة وسلطنة عُمان*. العين: دار الكتاب الجامعي.

أحرشاو، الغالي (1994). *واقع التجربة السيكولوجية في الوطن العربي*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

بركات، حليم (2000). *المجتمع العربيّ في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

حجازي، مصطفى (1993). *علم النفس في العالم العربي: من الواقع الراهن إلى المشروعية الوظيفية*.

الخليفة، عمر (2011). *آفاق توطين علم النفس في العالم العربي* (جزء 1). إصدارات شبكة العلوم النفسيّة.

الخليفة، عمر (2000). *توطين علم النفس في العالم العربي: دراسة تحليلية لأبحاث الإبداع والذكاء والموهبة*. *مجلة جامعة أم القرى، 12*، 33 – 53.

الخليفة، عمر (2001). *علم النفس التجريبيّ في التراث العربي الإسلامي*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

كوش، دنيس (2007). (مترجَم). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

يونس، فيصل، وخليل، إلهام (2007). *نموذج العوامل الخمسة للشخصية: التحقق من الصدق وإعادة الإنتاج عبر الحضاري*. مجلة دراسات نفسية، 17، 553 – 583.

Abou-Hatab, F.A. (1992). Psychology in Egypt . In V. S. Sexton & J. D. Hogan (Eds.), *International psychology: Views from around the world* (pp 111 – 128). Lincoln, NE: University of Nebraska Press.

Abou-Hatab, F. (1997). Psychology from Egyptian, Arab, and Islamic perspectives: Unfulfilled hopes & hopeful fulfillment. *European Psychologist, 2,* 356–365.

Adair, J., & Loving, R. (1999). Indigenous psychologies: The meaning of the concept and its assessment. Applied Psychology: *An International Review, 48,* 97-102:

Ahmed, R. A. (2004). Psychology in Egypt. In M. S. Stevens & D. Wedding (Eds.), *Handbook of international psychology* (pp. 387 – 403). New York, NY: Brunner-Routledge/Taylor and Francis.

Ahmed , R. A. , & Gielen , U. P. (1998). Introduction . In R. A. Ahmed &U. P. Gielen (Eds.), *Psychology in the Arab countries* (pp. 3 – 48). Menoufia, Egypt: Menoufia University Press.

Allwood, C. M., (2018). *The nature and challenges of indigenous psychology.*Cambridge University Press.

Allwood, C. M. (2019). Future prospects for indigenous psychologies. *Journal of Theoretical & Philosophical Psychology, 39*(2), 90–97.

Allwood, C., & Berry, J. (2006). Origins and development of indigenous psychologies: An international analysis. *International Journal of Psychology,41,* 243-268.

Belzen, J. A. (2010). *Towards cultural psychology of religion: Principles, approaches, applications.* Dordrecht: Springer

Berry, J. W., & Dasen, E R. (1974). Introduction. In J. W. Berry & E R. Dasen (Eds.), *Culture and cognition* (pp. 1-20). London: Methuen.

Berry, J. W., Poortinga, Y. H., Breugelmans,S. M., Casiotis A.& Sam, D. (2011) Cross-cultural psychology: *Research and applications* (2nd ed.). New York: Cambridge University Press.

Berry, J. W., Poortinga, Y. H., Segall, M. H., & Dasen, P. R. (2002) Cross-cultural psychology: Research and applications (2nd ed.). New York: Cambridge University Press. Boas, F. (1928). *Anthropology and Modern Life.* New York, NY: Norton.

Boas, F. (1928). Anthropology and Modern Life. New York, NY: Norton.

Bruner, J. (1990). *Act of meaning. Cambridge,* MA: Harvard University Press.

Chiu, C. y., Leung, A. K.-Y. & Hong, Y. Y. (2011). Cultural processes: An overview. In Leueng, A. K.-Y., Chiu, C. y., Hong, Y. Y. (Eds). Cambredge University Press.

Diener,E, Tay,L.,& Myers, D., G. (2011). The religion paradox: if religion maks people happy, why are so many dropping out? *Journal of Personality & Social Psychology,101,* 1278-1290.

Enriquez, V. G. (1993). Developing a Filipino psychology. In U. Kim & J. Berry, *Indigenou psychologies: Research and experience in cultural context* (pp. 152–169). Newbury Park, CA: Sage.

Greenfield, P. (2000). Three approaches to the psychology of culture: Where do they come from? Where do they go? *Asian Journal of Social Psychology, 3,* 223-240.

Gregg, G. (2005). *The Middle East: A cultural psychology.* Cambridge, UK: Oxford University Press.

Groh, A. (2020). *Theories of Culture. London:* Routledge.

Hall, G. C. N., Yip, T., & Zárate, M. A. (2016). On becoming multicultural in a monocultural research world: A conceptual approach to studying ethnocultural diversity. *American Psychologist, 7,*(11) 40–51.

Heine, S. J.(2012). *Cultural psychology* (2nd. Ed.). New York: W. W. Norton.

Hofstede, G. (2013). Replicating and extending cross-national value studies: Rewards and pitfalls-An example from Middle East studies. *AIB Insights, 13,* 1-15.

Hood,R.W& Hill, P. C., & Spilka., B.(2009). Psycology of Religion: *An Emperical Approach* (4th ed,).New York: Guilford Press

Hwang K. K.(2014).Culture-Inclusive Theories of Self and Social Interaction: The approach of multiple philosophical paradigms, *Journal for the Theory of Social Behaviour, 45,* 40-63.

Ibrahim, A. S.(2013). Arab World psychology. In Kenneth D. Keith (Eds), The *Encyclopedia of Cross-Cultural Psychology.* John Wiley & Sons, Inc.

Kim, U. (2000). Indigenous, cultural, and cross-cultural psychology: A theoretical, conceptual, and epistemological analysis. *Asian Journal of Social Psychology, 3,* 265-287.

Kim, H. S., & Sasaki, J. Y. (2014). Cultural neuroscience: Biology of the mind in cultural contexts. *Annual Review of Psychology, 65,* 487–514.

Kim, U., Yang, K. S. Hwang, K. K, (2006). *Indigenous and cultural psychology: Understanding people in context.* New York: Springer.

Kroeber, A. L. & Kluckhohn, C. (1952). Culture. A Critical Review of Concepts and Definitions (Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethnoloy, Harvard University, vol. XLVII, No. 1). Cambridge, MA: Peabody Museum.

Lehman, D., Chiu, C. & Schaller, M. (2004). Psychology and Cuture. *Annual Reviews of Psychology, 55,* 689-714.

Masters,K. S., and Hooker,S.A. (2013). Religion, Spirituality, and Health.The Guiford Press.

McCrae, R. R., Costa, P. T., Jr., Martin, T. A., Oryol, V. E., Rukavishnikov, A. A., Senin, I. G., et al. (2004). Consensual validation of personality traits across cultures. *Journal of Research in Personality, 38,* 179-201.

McCrae, R. R., Terracciano, A., & 78 Members of the Personality Profiles of Cultures Project. (2005). Universal features of personality traits from the observer's perspective: Data from 50 cultures. *Journal of Personality & Social Psychology, 88,* 547-561.

Malinowski (1944). A scientific theory of culture. Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.

Markus, H.R., & Kitayama, S. (1991). Culture and the self: Implications for cognition, emotion and motivation. Psychological Review, 98, 224–253.

Norenzayan, A.& Hein, S.J.(2005).Psychological universals: What are they and how can we know? Psychological Bulltin,135, 763-784.

Parsons, T. (1951). The Social System. New York, NY: The Free Press. (2nd ed.: London: Routledge, 1991).

Ratner, c. (2008). Cultural Psychology, Cross-cultural Psychology, Indigenous Psychology. In , F. Columbus (Editor). Hauppauge, NY: Nova Science publishers.

Saroglou, V., Delpierre, V., & rDernelle, R.(2004).Values and religiosity:A meta

analysis of studies using Schwartz's model. *Personality and Individual Differences, 37,* 721-734.

Saroglou, V.,& Cohen,A. B.(2013). Cultural and crosscultural psychology of religion, In R. F. Paloutzian and C. L. Park (Eds.), *Handbook of the Psychology of Religion and Spirituality* (pp.330-354.

Segall, M. H., Lonner , W. J. Berry, J. W. (1998). Cross-Cultural Psychology as a Scholarly Discipline: On the Flowering of Culture in Behavioral Research. *American Psychologist, 53,* 1101-1110.

San Martin, A., Sinaceur, M., Madi, A., Tompson, S., Maddox, W., Kitayama, S. (2018). Self-assertive interdependence in Arab culture, *Nature Human Behaviour, 2,* 830–837.

Shweder, R. A.(1990). Cultural psychology- What is it?In J. Stigler,R. Shweder, & G. Herdt (Eds.), *Cultural psychology: Essays on comparative human development* (pp. 1-43).New York: Cambridge University Press.

Tajfel, H. (1981) *Human groups and social categories,* Cambridge, UK: Cambridge University.

Taves, A. (2009). Religious experience reconsidered: A building-block approach to the study of religion and other special things. Princeton: Princeton University Press.

Triandis HC. (1989). The self and social behavior in differing cultural contexts, *Psychol. Rev, 96,* 506–20 .

Vignoles, V. l., et al. (2016). Beyond the 'East–West' Dichotomy: Global Variation in Cultural Models of Selfhood. *Journal of Experimental Psychology: General*, *145,* 966-1000.

Wheeler, L., Reis, T., & Bond, M.H. (1989). Collectivism - individualism in everyday social life: The middle Kingdom and the melting pot. *Journal of Personality & Social Psychology, 57,* 79 – 96.

Zebian, Samer [et al.] (2007). Developing an appropriate psychology through culturally sensitive research practices in the Arabic - speaking World: A Content analysis of psychology research published between 1950 and 2004.» *Journal of Cross - cultural Psychology, 38,* 91 – 122.

Zeinoun,P., Daouk _ Oyry,L., Choueri, L. & Van deVijver,F. (2017). Arab- Levantine personality structure: A psycholexical study of modern standard Arabic in Lebanon, Syria, *Jordana and the West Bank. Journal of Personality & Social Psychology, 113,* 453 – 465.

قـدم في : أغسطس 2020

أجيز في : نـوفمبر 2021